عصور - تصنيف ج- المجلد 22 / العدد02 - خاص - أوت 2023
EISSN 6278-2600 ISSN 1112- 4237
http://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/167

معرف الكائن الرقمي للمقال:10.54239/2319-022-999-012 (DOI)

الصرع بالغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط: التشخيص والعلاج

The Epilipsy in islamic west during the Middle Ages- Diagnosis and Treatment-

د.محمد ناصري*

جامعة سيدي بلعباس/الجزائر

mohammedunivsba@gmail.com

تاريخ الإرسال:2023/01/27 تاريخ المراجعة: 2023/02/20 تاريخ القبول:2023/07/21

الملخص:

يقودنا الحديث عن المنظومة الصحية بالغرب الإسلامي إلى تسليط الضوء على خارطة الأمراض والعلل المنتشرة بها، باعتبارها خطوة أولى يمكن النظر إليها من زاوية التحدي والاستجابة لتفسير المستوى المرموق الذي وصل إليه أطباء العالم الإسلامي مشرقا ومغربا، ومن بين الأمراض التي وقف أمامها الطب عاجزا عن تفسيرها نذكر مرض الصرع، وهو من أهم الأمراض المنتشرة بين الساكنة، أين طالعنا تفسيرات بعيدة عن التشخيص العلمي لأسباب حدوثه، وحتى التشخيص والأدوية التي اقترحوها جُلّها من المنظومة الطبية اليونانية التي برع أطباء الأندلس في ترجمة مصادرها والاستفادة منها على قدر كبير.

في المقابل نجد حضورا روحانيا زاحم الطبيب في علاج الصرع، في مشهد يُجسِّده الطبيب من جهة والولي الصالح من جهة أخرى، فالأول يبذل جهده لعلاج المرض لكن على أغلب الأحيان يكون مفعوله ضئيلا، ما يجعل الساكنة تطرق باب الولي، الذي يجسّد دور المنقذ في ذهنية العامة، فيَرْقي ويعطي الحَرَز والتميمة والحِجاب، ويلمس ببركات يده الشريفة رأس

*د.محمد ناصري- جامعة سيدي بلعباس

المصروع فيشفى؛ وعليه فإشكالية هذا المقال ترتكز أساسا على ثنائية المادي والروحاني في تشخيص الصرع وعلاجه، وهو ما سنحاول التطرق إليه من خلال لملمة شتات النصوص على قلّتها من مختلف المصادر، ويهدف هذا المقال إلى تبيان تاريخ مرض الصرع في الغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط وتعاطي الأطباء والمجتمع معه.

الكلمات المفتاحية: الصرع؛ التشخيص؛ البلغم؛ الزهراوي؛ ابن زهر؛ ابن الجزار؛ الأدوية المفردة؛ الأدوية المركبة؛ الروحاني؛ الرقى؛ الولي.

Abstract

There are many diseases for which medicine is unable to find a correct diagnosis including epilipsy, which is one of the most common diseases in the islamic west, where did we see explanations that are far from scientifique diagnosis. And even the diagnosis and medicines that were proposed mostly from the greek medical, which andalusian doctors exelled in translating its source and benefiting from them to a great exlent. On the other hand, we find a spiritual presence that competed with the doctor in treating epilipsy, the doctor on the one hand and the saint, the first is making every effort to treat the diseases, but most of the time it has little effect, what makes the community seek the help of the saint who embodied the role of the savior in the mentality of the community, the problem of this article is manly based on the duality of the material and the spirituel in diagnosting and the trating epilipsy which we will try to adress.

Keywords :epilipsy; diagnosis; greek medical; spiritual; Doctor; Saint; Diseases; Islamic West.

-مقدمة:

يقودنا الحديث عن المنظومة الصحية بالغرب الإسلامي إلى تسليط الضوء على خارطة الأمراض والعلل المنتشرة بها، باعتبارها خطوة أولى يمكن النظر إليها من زاوية التحدي والاستجابة لتفسير السمعة العلمية المرموقة التي حظي بها أطباء العالم الإسلامي خلال العصر الوسيط مشرقا ومغربا، مقارنة بالمنظومة الصحية بأوروبا.

ويجد المُطَّلِع على المصادر الأساسية لهذا الجانب والمتمثلة في كتب حفظ الصحة ومنافع النباتات وحتى تفصيل مكوناتها، العديد من المعلومات عن مختلف الأمراض المنتشرة، مع تشخيصات علمية لها وأدوية لعلاجها، لكن لا يعني ذلك أن المنظومة الصحية وصلت لأوج تطورها وأزاحت كل الإشكاليات التي لاقتها في تشخيص المرض ومداواته، بل نجد أن العديد منها عجز الطب عن تفسير سبب حدوثه، وهو ما فتح الباب للتفسير الروحاني الذي حل محل الجانب المادي، كتعويض عن هذا العجز.

ومن بين الأمراض التي وقف أمامها الطب عاجزا عن تفسيرها نذكر مرض الصرع، وهو من أكثر الأمراض انتشارا بين الساكنة، أين طالعنا تفسيرات بعيدة عن التشخيص العلمي لأسباب حدوثه، وحتى التشخيصات والأدوية التي اقترحوها جلّها من المنظومة الطبية اليونانية التي برع أطباء الأندلس في ترجمة مصادرها والاستفادة منها على قدر كبير.

في المقابل نجد حضورا روحانيا إن صح التعبير زاحم الطبيب في علاج الصرع، في مشهد يجسده الطبيب من جهة والولي الصالح من جهة أخرى، فالأول يبذل جهده لعلاج المرض لكن على أغلب الأحيان يكون مفعوله ضئيلا، ما جعل الساكنة تطرق باب الولي، ذلك البطل الذي جسد دور المنقذ في ذهنية العامة، فيرقي ويعطي الحرز والتميمة والحجاب، ويلمس ببركات يده الشريفة رأس المصروع فيشفى.

أمّا فيما يخصّ الدراسات السابقة حول تاريخ مرض الصرع بالغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط، فإنّنا لم نقف على دراسة شاملة مخصصة له، سواء كرسالة جامعية، أو مقال، أو مداخلة في ملتقى، نستثني من ذلك بعض الدراسات التي تطرقت له في أسطر معدودة وهي كالتالي:

نهال عباس زنيل، الإنجازات العلمية للأطباء في الأندلس وأثرها على التطور الحضاري في أوروبا القرون الوسطى، دار الكتب العلمية، بيروت، 2013. أين خصصت سطرا واحدا للصرع في الصفحة 289.

جعفر يايوش، غازي الشمري، الطبيب ابن زهر الأندلسي رائد التجريب، منشورات مريم، الجزائر، 2015. أين خصصا أربعة أسطر في الصفحة 224 وهي عبارة عن اقتباس من كتاب التيسير في المداواة والتدبير لابن زهر.

صديقي محمد، الأمراض والخدمات الصحية في بلاد المغرب الإسلامي ما بين القرنين 5-7ه/11-13م، أطروحة دكتوراه، جامعة حمة لخضر بالوادي، 2021. أين تحدث في الصفحة 83 عن الصداع والصرع في ثلاثة أسطر.

سعيد بنحمادة، الإعاقة والمعوقون بالمغرب والأندلس في العصر الوسيط-محاولة في فهم أنماط الفعل والتفكير والإحساس، دار رؤية، القاهرة، 2021. أين خصص بعض الأسطر بالحديث عن الصرع بالضبط ص131،124.

من خلال هذه الدراسات السابقة نجد أن تاريخ مرض الصرع بالغرب الإسلامي لم يحظ بدراسة مخصصة وشاملة، وهو ما سنحاول القيام به، رغم قلة المصادر.

إشكالية هذا المقال ترتكز على تشخيص مرض الصرع لدى بعض الأطباء بالغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط، وذلك حسب ما توفر لدينا من مصادر؛ ووضعنا فرضية قائمة على غياب التشخيص الصحيح للمرض لديهم مقارنة بالتشخيص المعاصر للمرض،كما وجدنا بعض الإشارات في المصادر الصوفية على قلتها والتي تشير إلى لجوء ساكنة بعض المناطق إلى الأولياء الصالحين؛ وبذلك سنجد أمامنا طبيب وولي صالح يتنافسان على علاج الصرع، كل بوسائله، وسنجيب في الخاتمة عن صحة الفرضية من عدمها؛ وذلك من خلال توظيفنا للمنهج التاريخي والوصفي.

أولا-تشخيص مرض الصرع: نظرة أبقراطية

حاول أطباء الغرب الإسلامي تقديم تفسيرات مختلفة لمرض الصرع، فلكل من ابن الجزار القيرواني والزهراوي وابن زهر وابن رشدتفسير مشترك نابع من تأثرهم بالمدرسة اليونانية مجسدة في نظرية الأخلاط التي جاء بها الطبيب اليوناني أبقراط من خلال ملاحظاته على المرضى الذين عالجهم؛ وهي نظرية قائمة على افتراض أن الجسم مكون من أربعة أخلاط طبيعية، وهي البلغم، الدم، المرّة السوداء، الصفراء؛ وهي ناتجة عن

الأمزجة الطبيعية الأربعة، الحار، البارد، الرطب، اليابس(ابن سينا، ج1، 1999: 28-33)؛ ففي حالة توازن هذه الأخلاط يكون الجسم في صحة جيدة، أما المرض فليس سوى اختلال أحدها(جعفر يايوش، غازي الشمري، 2016: 65)؛ وبدورها ترتبط هذه الأخلاط بالعناصر الطبيعية الأربعة التي رآها أساسية وهي الماء، الهواء، التراب، النار، بالتالي كل مزاج يقابل خلط معين وكل خلط يقابله عضو في الجسم، وكل عضو يقابله عنصر طبيعي معين(ابن سينا، ج1، 1999: 23-24)، وهو تصور عام عن وظائف الجسم،رأى فيه الطب اليوناني أنّ أهم عملية تحدث في جسم الإنسان تتمثل في هضم الأغذية التي يتناولها وتوزيعها على الأعضاء لتؤدي وظائفها، بدءا بالبخار الناتج عن الغذاء الذي يصعد لأعلى، أمّا الأغذية فيتم امتصاصها من طرف العروق وتوجّهها إلى الكبد الذي يحولّها بدوره إلى دم، ويحوّل جزء منه إلى الصفراء والطحال ومنه تتكون السوداء، والذي يتوجّه للمعدة والرئة يتحول إلى بلغم، (مجموعة من المؤلفين، د.س: 39) ولم يفسّر أبقراط سبب المرض في اختلال إحدى الأخلاط فقط، بل أضاف له سببا ثانيا يتمثل في نوعية الأطعمة المتناولة من طرف المريض والبيئة المناخية التي يعيش فيها(راغب السرجاني، 2009: 22).

ثانيا-صرع أم كابوس أم وسواس أم تشنج:

الاتفاق في التسمية مهمّ لتحديد موضوع المرض الذي خصّه الأطباء بالتشخيص، إلّا أننا وجدنا اختلافا في التسمية لدى أطباء الغرب الإسلامي، فمنهم من سماه صرعا، ومنهم من سماه كابوسا، ونجد منهم من وصفه بالوسواس السوداوي ومنهم من وصفه بالتشنج؛ فابن الجزار نقل عن إسحاق بن حنين أن العلة المسماة بالسُّبات هي الصرع والوسواس(ابن الجزار، 1980: 98) وبذلك صنّف أي غياب عن الوعي بالسبات، وبما أن النوبة الصرعية ينتج عنها إغماء فهي بذلك سبات؛ أما ابن رشد الحفيد فقد فرّق في التسمية والموضوع بين السبات كمرض منفصل عن الصرع، وذكر أنهما يشتركان في تعطيلهما للقوى السياسية وهي التخيل والفكر والذكر(ابن رشد، 1989: 145) كما عالج الوسواس السوداوي أو المالنخولياوالكابوس كمرضين منفصلين عن الصرع ولم يصفه مطلقا بالوسواس؛ أما الزهراوي فلم يذكر الكابوس كاسم للصرع وإنما ذكره

كأحد أعراض للنوبة الصرعية(الزهراوي، ورقة 36:الوجه01) وفيما يخص التشنج، فقد ذكر ابن زهر أنّ الصرع هو نوع من أنواع التشنج، وذكره رفقة الزهراوي كأحد الأعراض التي تقع للمصروع (ابن زهر، ج1: 60) كما اعتبر ابن زهر أنّ الصرع الذي يحدث في النوم هو الكابوس(ابن زهر، ج1: 61).

ثالثا-أسباب الصرع:

1-تفسير الزهراوي:

نجد لدى الزهراوي أربعة أسباب لهذا المرض، غير أنّه وجدها غير كافية لتقديم صورة متكاملة عن أسباب حدوثه فوضع سببا خامسا للتفسير الروحاني؛ فالصرع في نظره إمّا أن يكون بسبب البلغم الذي يسدّ أوعية الدماغ ويعطِّل منابت العصب بسبب الرطوبة التي يفرزها، وبذلك لا يحصل المخ على الكمية الكافية من الأكسجين، وقيام المصروع من غشيته يبقى رهينا بزوال هذه الرطوبة من العصب(الزهراوي، الورقة 35، الوجه02)؛ وتبدو على الجسد أعراض معينة تدل على الصرع بسبب البلغم، وحصرها في ترهل الجسد وبياض الزبد الذي يطرحه الفم خلال النوبة، إضافة إلى بقاء الجسد ساكنا دون تخبط خلال نوبة الصرع(الزهراوي، الورقة 36:الوجه01) أما من الناحية النفسية فلا يحس بقلق وكآبة كبقية المسببات الأخرى.

حدّد الزهراوي مسببات بيئية وغذائية وعمرية لصرع البلغم، فتكثر الإصابة به في فصل الشتاء وفي البلدان ذات المناخ البارد الرطب فتؤثر على الجسد الذي يفرز الكثير من المخاط البلغمي؛ وعلى مستوى الأغذية التي يتناولها الإنسان نجد البعض منها لها أثر في الإصابة بنوبة الصرع بسبب إفرازها للمخاط، على غرار البقول والقرع والقثاء والبطيخ واللحوم الغليظة، كما تُسبب قلة الرياضة والخمول الجسدي إفراز أكثر للمخاط الذي يُعطّل وظائف المخ؛ وفيما يخص الفئات العمرية فهو منتشر بكثرة بين فئة الصبيان؛ وتطرأ على الجسد قبيل النوبة أعراض معينة حصرها في ضعف وظائف الحواس وكثرة النسيان، وكثرة البزاق والمخاط، وظهور الزبد على الفم خلال النوبة التي تكون مدتها طويلة إلا أنّه لم يحددها، كما ذكر أن زيادتها تتبع مراحل دورة القمر وتطول عندما تزيد إضاءته(الزهراوي، الورقة 36: الوجه02)وهذا النوع من الصرع يعتبر في

نظره أوهن لأنه مرهون بزوال الرطوبة من أوعية الدماغ وتعود لحالتها الطبيعية وتزود المخ بالأكسجين الكافي لتأدية وظائفه(الزهراوي، الورقة 36:الوجه01).

المسبب الثاني للصرع يكون من الخلط السوداوي، وتجتمع عدة أعراض نفسية وجسدية في المريض تدل على ذلك، فعلى المستوى النفسي نجد الفزع والظنون الكاذبة، وعلى المستوى الجسدي نحافة البدن وزيادة خفقات القلب وكثرة الأكل مع قلة النوم وحموضة في المعدة، مع قيء خفيف يسمى القَلَس؛ وخلال النوبة يتخبط المريض ويقوم بأمور غريبة، وتكثر النوبات خلال فصل الخريف ويصيب ذوي الأبدان الباردة والمُتكهّلين، وهناك بعض الأغذية يؤدي تناولها إلى حدوث نوبات صرع من هذا النوع، مثل العدس والكرنب والباذنجان(الزهراوي، الورقة 36: الوجه02).

تحدث نوبات الصرع أيضا بسبب الخلط الدموي ومن علاماته حدوث إمساك في الدم الذي يفترض أن يطرحه الجسد كدم البواسير ودم الطمث، وينعكس هذا الاحتقان على لون البشرة التي يزداد احمرارها، مع حمرة شديدة في العينين، وبروز للعروق والأوداج، ويطرح هذا الدم المحتقن من الأنف بغزارة خلال حدوث النوبة، ليعود لون البشرة والعينين إلى حالتهما الطبيعية(الزهراوي، الورقة 36:الوجه02).

السبب الرابع لنوبات الصرع يكون نتيجة ريح غليظة في الدماغ، وصاحبها يحس بثقل في الرأس مع دوار وغشاوة في العينين، كما تكون حركته غير مستوية (الزهراوي، الورقة 36: الوجه02). كما تحدث أيضا بسبب المعدة أين يصعد منها بخار فاسد للدماغ وصاحبها يحس بلدغ ونفخ في المعدة مع غثيان (الزهراوي، الورقة 36: الوجه02) وتحدث أيضا بسبب ريح غليظة تصعد للدماغ من إحدى الأعضاء، وصاحبها يحس بارتفاع بخار وبرودة في الساق أو اليد أو الوجه، مع اضطراب في العضو المتسبب في البخار(الزهراوي، الورقة36: الوجه 02).

2-تفسير ابن زهر:

حسب ابن زهر الأندلسي، فإن الصرع يكون بسبب الخلط البلغمي أو السوداوي، أين يقوم الخلط بسدّ منفذ الروح النفساني فيدفع الدماغ عن نفسه الانسداد، ويحدث بذلك التشنج، وقد يحدث بسبب بخار يصعد للدماغ عن خلط مذموم(ابن زهر، ج1:

61) إلا أنّه في هذا التفسير يتناقض مع نفسه، لأنه حصر السبب في خلطين فقط، بينما لم يبين ما هو هذا الخلط المذموم، هل البلغمي أم الدموي أم خلط آخر؟

كما أرجع سببه إلى اختلال في مزاج الدماغ إما ذاتيا أو بمشاركة أعضاء أخرى في الجسد (ابن زهر، ج1 :58) أين شبّهه بما يفعله الدخان مع نور الشمس فيحجبها إذا كان كثيفا(ابن زهر، ج1: 63)؛ والعضو المتسبب بصعود الريح الغليظة يكون إما المعدة في أكثر الحالات أو عضو آخر، ويكون ذلك بسبب تناول الأطعمة الغليظة كالبصل والثوم والفول(ابن زهر، ج1: 64).

إضافة لذلك قدّم نوعين من الصرع، الأول يحدث في اليقظة وهو صعب العلاج بالنسبة للبالغين، والثاني هو الصرع في النوم أو كما سماه بالكابوس، وهو سهل العلاج(ابن زهر، ج1: 61) وهنا نقف متسائلين عن إمكانية خلطه بين ما يراه النائم من أحلام وبين الصرع؟

3-تفسير ابن رشد الحفيد:

أرجع ابن رشد سبب الصرع إلى المزاج البارد الرطب والمزاج البارد اليابس، وسبب ذلك أنه رأى أغلب المصابين به من الأطفال والكهول أي أصحاب هذين المزاجين (ابن رشد، 1989: 148) وسبب حصره المرض في هذين المزاجين هو قناعته بأن الدماغ رطب وكل الأمراض التي تصيبه تكون من الأمزجة الرطبة (ابن رشد، 1989: 145) كما فسره بوجود ريح غليظة تتشكل من أحد أعضاء الجسد وتصعد للدماغ، أو بسبب المعدة خاصة عند الجوع الشديد أو الصوم أو جفاف الحلق وهذا حسبه راجع للخلط المراري(ابن رشد، 1989: 148)؛ وهنا أيضا نجد تناقضا بين حصره للرطوبة كسبب للنوبات الصرعية وبين إدخال الخلط المراري كسبب لها.

4-تفسير ابن الجزار:

نجد لدى ابن الجزار استثناء بالنسبة لباقي الأطباء، فهو وإن كان ضمنيا اعتمد على نظرية الأخلاط الأربعة، إلا أنه لم يذكرها بشكل مباشر، بل حصرها في الأغذية التي

يتناولها المريض والتي تؤثر على فم المعدة والتي وضعها كمسبب مباشر للنوبات الصرعية(ابن الجزار، 1980: 98-99).

أمام تعدّد هذه التشخيصات ومحاولة أطباء الغرب الإسلامي التوصل إلى تفسير أقرب إلى الحقيقة غير أن بعضهم ونخص بالذكر الزهراوي قد اعترف بأنها لا تتعدى المحاولات، وأن أسبابه الحقيقية خفيت عن الأطباء فلم يهتموا به وبعلاجه، ولهذا فتح المجال للمسببات الروحانية من مس الجن والشياطين(الزهراوي، الورقة 37: الوجه01).

رابعا-أعراض الصرع ووصف النوبة:

بغض النظر عن أسباب الصرع والتشخيصات المختلفة له لدى أطباء الغرب الإسلامي، هناك أعراض معينة تعتري المصروع قُبَيْل وخلال النوبة ونذكر منها حزن وكآبة تطرأ على النفس بدون سبب معين وتيهان مفاجئ للعقل يعجز خلاله عن معرفة الأشياء المحيطة به، يتبعها اضطراب في النطق، أما على مستوى الذاكرة فيحدث تشويش عليها فينسى المصروع ما حدث قبيل النوبة وخلالها(الزهراوي، الورقة 36:الوجه01).

بداية النوبة تكون بسقوط مفاجئ للمصروع مع غياب تام عن الوعي خلالها وظهور الزبد على فمه كما يعض لسانه، وهي كما وصفها الزهراوي بأنّها تعطيل أو فساد للقوى الثلاث وهي التخييل والفكر والذكر، وتشنج للجسد، وفي بعض الحالات يفرز المصروع مني أو براز أو بول من غير إرادة لأنه فاقد للوعي(الزهراوي، الورقة 36 : الوجه01)، وقد قسّم ابن زهر غياب المريض عن الوعي إلى مرحلتين، الأولى منها هي الإغماء، حيث ينسى فيها المريض حتى عملية التنفس، وتعقبها المرحلة الثانية المسماة بالغَطيط والتي يحاول فيها الجسد التنفس بطريقة مسموعة أشبه بالشخير(ابن زهر، ج1: 85).

يتميز مرض الصرع بتعدد الحالات الاستثنائية التي تعرض للمرضى، فإذا ذكرنا سابقا أعراض تدل على وقوع نوبة الصرع بشكل مفاجئ فإن تجارب أطباء الغرب الإسلامي أظهرت من خلال معاينتهم للمرضى بعد زوال النوبة أن منهم من يحس بوقوعها ثواني قبل ذلك فيقوم إذا كان وسط جماعة بالاستتار عنهم(الزهراوي، الورقة 36، الوجه01) حتى يقع في مكان قد يكون محظوظا إذا لم تكن به أدوات تؤذيه خلال النوبة،

لأنّ الزمن الفاصل بين الشعور بالنوبة والدخول فيها يكون جد قصير لا يتعدى ثواني لا يمكن المصروع خلالها من تحديد مكان آمن يقع فيه.

غياب الوعي عن المريض خلال نوبة الصرع تعني أنه لا يعي بما يحيط به ولا يشعر به، لكن في اللاوعي تظهر لدى العديد من المرضى خيالات أو مشاهد يرونها هم فقط، وتختلف من شخص لآخر تبعا لتكوينه النفسي ومكنون اللاوعي، فمن خلال ما رصده الزهراوي نجد من يرى أن امرأة تدعوه لممارسة الجنس فيقوم بذلك وتنتهي النوبة بخروج المني من المريض(الزهراوي، الورقة 36:الوجه01)، وبذلك فإن أي مريض ينزل منه مني فإنه رأى نفس الخيالات؛ ومنهم من يرى أن امرأة سوداء تقترب منه وعليها جلد حيوان فيصرع حالما وصلت إليه(الزهراوي، الورقة 36:الوجه01).

خامسا-النوبات الصرعية ودورات القمر:

حظي المعطى الفلكي بنصيب في تفسير زمن حدوث نوبات الصرع أين ربطت بدورات القمر، فقد ألحّ ابن زهر أنّ المعرفة بدورات القمر "من أعمال الطب نفسها التي لا غناء للطبيب من حيث إنه طبيب عنها"(ابن زهر، ج1: 86). كما ذكر الزهراوي أنّ النوبة قد تحدث في تواريخ معلومة إمّا في امتلاء القمر أي منتصف الشهر، وإمّا في مَحاقِه أي نهاية الشهر القمري وذلك لأنّ دورة القمر تؤثر على نشاط الدماغ بسبب ما تحدثه من رطوبة، كما قد تَحْدُث مرة واحدة في الشهر في تاريخ معلوم مرتبط بالأشهر القمرية(الزهراوي، الورقة 36:الوجه01).

سادسا-علاج الصرع:

1-صرع الصبيان:

يكون علاج صرع الصبيان بمراقبة الأغذية التي تتناولها الأم لأنّها تؤثر بشكل مباشر على مكونات الحليب، فقبل تناول الطعام تقوم بالتحرك قليلا وتتغذى بالأغذية المحسنة للمزاج البلغمي كالدجاج والفراريج والعصافير والحمام؛ وتتجنب تناول اللحوم

الغليظة والبقول واللبن والقرع والباذنجان والكرنب والكرفس(الزهراوي، الورقة 37:الوجه01)؛ وتتعدى المراقبة إلى حليب الأم فإن تغير لونه إلى الأخضر أو أصبح داكنا تتوقف الأم عن إرضاع الصبي حتى تجرب شيئا من دهن يستخرج من قدنس البحر ويسمى جند بادستر، عن طريق مضغه ووضعه في فم الصبي حين إرضاعه، كما تجرب نفس الوصفة مع صبيها بمضغ ثمار القردمان(الزهراوي، الورقة 37: الوجه02). ونقل ابن الجزار عن جالينوس علاجا يتمثل في تعليق زهرة الفاوينا على صدر الصبي لأن رائحتها مفيدة له(ابن الجزار، 1968: 98)

2-صرع البالغين:

أ-أدوية ذات مصدر حيواني:

شكّلت أعضاء الحيوانات مصدرا علاجيا حسب الأطباء للتخفيف من نوبات الصرع، من بينها منفحة الأرنب أين وصف بنقعها في الخل وإطعامها له، أمّا الحمار فيحرق حافره ويمزج بالماء ويسقى منه المصروع يوميا(الزهراوي، الورقة 37:الوجه02).وأما جبهته فيقطع منها قدر شبر ويلبسها المصروع طيلة السنة فإنها تنفعه شريطة أن ينزعها السنة الموالية؛ وحتى الكلب فإن تعليق شعره على صدر المصاب ينفعه من النوبات الصرعية، وتعليق ذنب الذئب ينفع المريض؛ كما وصف دواء مركب من دم السلحفاة مخلوط برقيق الشعير معجون بالعسل، وتُشكل منه حبات صغيرة قدر الحمص ويطعم منه المصروع صباحا ومساء على الريق(الزهراوي، الورقة 37:الوجه02)، وشكلت مرارة الذئب أيضا دواء للصرع، وتحضر من خلال إعدادها كسعوطات تقطر في أنف المريض مع حبة مسك، وفق تحديد زمني معين عند رأس الهلال، كما أن للثور حجر في مرارته تنفع المريض إذا سعط بها مع ماء السلق(الزهراوي، الورقة 38:الوجه01)، أما الفأر فيعلق على صدر المريض رأس فأرة برية، وفي بطن الديك حجر يميل إلى البياض يشبه الفرا ينفع تعليقه من طرد الشياطين (الزهراوي، الورقة 38:الوجه01).

ب-الأيارجات والغراغر والترياقات:

وصفت أدوية أخرى مصنفة ضمن الأيارجات (انظر التعليق رقم 01) والغراغر(انظر التعليق رقم 02)، من بينها أيارج جالينوس، أيارج أركانمبس، أيارج أبقراط، أيارج روفش، أيارج هرمس، أما الغراغر فأنفعها للصرع هو أيارج الفيفر المكون من شحم الحنظل والزوفا والفودنج والصعتر بماء التين اليابس والخل العنصلاني والسكنجبين مع الصلاء ويستعمل على الريق مع الفجل وعشبة الشبت(الزهراوي، الورقة 38:الوجه01)، ويصاحب هذا العلاج تدابير علاجية أخرى كالتحرك قبل تناول الطعام والاستحمام مرة أو مرتين أسبوعيا مع دلك اليدين والساعدين، أما على مستوى النظام الغذائي فيتناول الخبز النقي المعتدل الخمير المعجون بالماء الحار والكزبرة اليابسة، والفراريج والحجل والعصافير، ويتجنب تناول اللحوم الغليظة كالأرانب والتيوس والبقر والفرير (انظر التعليق رقم 03)، ويتجنب تناول الكرفس، وجميع البقول عدا السلق والجرجير والخرشفون، ويصب على رأس المريض الماء الساخن المطبوخ بجملة من الأعشاب المكونة من الشيح والقيصوم والبابونج والفودنج والشبت(الزهراوي، الورقة 38:الوجه01)، كما وصفت أدوية أخرى على غرار الترياق الفاروق مع الشبت والبلاذر مع جوارش الجوز والشكريان ودواء المسك وذلك في أيام الراحة، مع الإكثار من دخول الحمام لمدة قصيرة من غير التعرق، كما وصفت مجموعة من الأحجار تنفع المصروع إذا علقها على صدره كحجر الحية وحجر اليسر(الزهراوي،الورقة 37:الوجه02). كما حضر الحرمل في وصفات الأطباء فقد وصفوا بنقع رطل منه في ثلاثين رطلا من الشراب العتيق، ثم يغلى جيدا حتى يذهب ربعه، ويسقى منه المصروع يوميا قدر أوقية أو أكثر حسب سنه(الزهراوي،الورقة 37:الوجه02).

وصف لنا ابن الجزار ثلاثة ترياقات مفيدة للنوبات الصرعية وهي مكونة من عدة نباتات وهي كالتالي:

الترياق الأول: وزن ثلاثة دراهم من دهن البلسان، الفلفل، القسط، المرّ الأحمر، القنة الحمراء، الجنطيانا، الزراوند، حب الغار؛ وزن درهمين من الزعفران، السليخة،

السنبل، الدارصيني، الدارفلفل، حب منشم، ميعة سائلة، جندبادستر؛ وزن درهم من الأسارون، الجعدة، الفودنج، بزر الشبت، بزر السلجم. يتم دق كل هذه المكونات وخلطها بماء الشهدانق أو ماء الجنطيانا مطبوخا أو ماء زراوند مطبوخ، وعجنها بعسل منزوع الرغوة ويتم تركها في جوف الشعير مدة سنة؛ يشرب منه المصروع قدر درهم، وإذا كان علاجه مستعجلا فيترك في الشعير مدة أربعون يوما على الأقل(ابن الجزار، 2009: 64).

الترياق الثاني: وزن درهمين من دهن البلسان، القسط الهندي، جنطيانا، زراوند، حب الغار، مرّ أحمر، فلفل، قنة حمراء؛ وزن درهم من دار صيني، ميعة سائلة، زعفران، حب منشم، دار فلفل، جندبادستر؛ تُدقّ كل هذه المكونات في وعاء واحد وتخلط بماء الشهدانق أو ماء الجنطيانا مطبوخا أو ماء زراوند مطبوخ، وتعجن بعسل منزوع الرغوة وتعتق مدة سنة في الشعير ويتناول المصروع منها وزن درهم(ابن الجزار، 2009: 65).

ج-العلاج بالحجامة والفصد والكي:

نجد حضورا لعلاجات أخرى على غرار الفَصد والحجامة والكي، ومن المرجح أن الأدوية التي وصفت سواء المفردة أو المركبة لم تقدم علاجا فعّالا للصرع، وهو ما استدعى افتراض وجود دم فاسد داخل الجسم قد يؤدي إخراجه إلى التعافي من النوبات الصرعية، ونجد لذلك وصفا دقيقا لدى الزهراوي، فبخصوص الفصد فقد ذكر أنه علاج مهم للنوبات الصرعية التي يتسبب فيها الخلط الدموي، ويكون ذلك بفصد العرق الثالث في المرفق والمسمى بالباسليق(الزهراوي، 2000: 398)، شريطة أن لا يظهر على المريض أي مانع يؤدي إلى مضاعفات جانبية، تاركا بذلك المجال حسب تشخيص الطبيب، مع بتر الشرايين التي خلف الأذنين وسكب ماء يقوي دماغ المريض مع دهن الورد أو مع الخل بماء الورد وذلك لمنع تصاعد البخار إلى الرأس، ويمكن أيضا فصد الساقين لجذب المادة المسببة للنوبات إلى أسفل أو حجامتهما لنفس السبب(الزهراوي،الورقة 38: الوجه02). ووصف حجامة على الساعد أو الرجل وذلك بشدّها وحجامتها بالشرط مع تحريك ذلك العضو حتى يتعب ثم يصب عليه الماء الساخن المطبوخ بالشبت والبابونج والشيح(الزهراوي، الورقة: 38 الوجه02).

أما الكَيُّ فقد وصف لمن يتعرض لنوبات صرعية بسبب البلغم، ويكون ذلك بتنقية الدماغ من خلال تناول الأيارجات المذكورة سابقا، أما إذا كان المريض صغيرا فعليه بالغراغر عدة أيام قبل الخضوع للكي مع تحسين نظامه الغذائي، يلي ذلك حلق رأس المريض ويكوى كية في وسط الرأس وأخرى في قرنيه(الزهراوي، 2000: 94)، وإذا كان جسد المريض قويا وقادرا على التحمل فيكوى زيادة على ما تقدم ثلاث كيات على فقرات العنق وأربعا على فقرات الظهر، ويُمْعَنُ في الكي حتى يحترق الجلد(الزهراوي، 2000: 93).

سابعا-النظرة الروحانية لمرض الصرع: خوارق الولي بديلا عن عجز الطبيب:

وصفنا في العناصر السابقة ما قدمته لنا المصادر الطبية من علاجات للصرع، بمختلف مصادرها النباتية والحيوانية، بصيغتها المفردة والمركبة، وحتى علاجات أخرى انطلقت من نظرة تنقية الجسد من دم فاسد أو ريح غليظة تتسبب للدماغ، وذلك عن طريق الفصد والحجامة والكي، إلّا أنّ كل هذه الوصفات المجربة لم تقدم علاجا فعالا لمرض الصرع، أو يمكن اعتبارها أدوية موجهة للصرع الذي سماه ابن القيم بالروحي بل ووصف الأطباء الذين يعترفون بصرع الأخلاط بالجهلة(ابن القيم، 2012: 97-98) وربما هذا هو السبب الذي جذب المجتمع أكثر نحو الماورائيات وغلب التفسير الروحانية لهذا المرض، وهو في نظرنا تعبير عن عجز الطب للوصول إلى تفسيرات صحيحة للصرع أو حصرهم له في الجانب المتعلق بالأخلاط (انظر التعليق رقم 04)، وهنا نجد حضورا للأولياء والمتصوفة برقاهم النافعة للصرع التي صورتها لنا كتب المناقب والتصوف كعلاج فعّال للصرع، باعتبار أن تشخيصهم له حُدِّد كنوع من مس الجن الذي يصيب الإنسان، فإذا كان الطبيب في سجال مع مختلف الأدوية المفردة والمركبة في محاولة منه الحد من النوبات الصرعية، فإن الولي في سجال مع الجن وهو سجال ينتهي في كل حالة بتفوق الولي؛ وسنرى ذلك في النماذج الثلاث التي استقيناها من ثلاثة مصادر مهمة من كتب المناقب، وهي التشوف إلى رجال التصوف، المستفاد في مناقب العباد، روضة النسرين في مناقب الأربعة المتأخرين:

تميز أبو يعزى يلنور بمناقبه العديدة، وحضوره في المشهد الاجتماعي خلال العهد المرابطي، أين ارتبط اسمه كمنقذ من مختلف الأزمات التي تعرض لها الساكنة خلال فترته، والشفاء من المرض يعتبر من أهمها، فبعد خروجه عقب صلاة الفجر وجد امرأة أمام باب المسجد تتخبط بسبب تعرضها لمس جني، فوقف عندها وتحدث مع الجني لائما له عن التعرض لها أمام المسجد، آمرا إياه أن يبتعد عن هذا الموضع، فقامت المرأة وابتعدت عن المسجد وواصلت تخبطها من الصرع، فتقدم إليها ورقاها وقامت كأنها ليس بها مس(محمد بن عبد الكريم الفاسي، ج2، 2002: 37).

من ذلك أيضا ما وقع لسيدي منصور مع شقيقه الولي أبي الحسن أبركان، أين كان يتناولان الطعام ومعهما صبي فأكل قطعة اللحم ووقع مصروعا، وهنا نجد سطوة لسيدي منصور الذي صاح بالجان ولامهم على فعلتهم بالصبي كما تُصوِره لنا الرواية، فكلمه الجان واعتذر له كون الصبي لم يسم الله، ليفيق بعد ذلك بدون ألم(محمد بن صعد الأنصاري، 2009: 126)، فهذه الرقية للمصروع تكون من خلال أمر خارق يتمثّل في تواصل الولي مع الجن كما رأينا، والأمر نفسه كان مع عمر بن علي الهزرجي الذي كان يكلم الجان وأن أمير الجن عاهده أن كل مكتوب يكتبه لمصروع إلّا شفي (ابن الزيات التادلي، 1997: 304).

كما كان أبو العباس السبتي يكتب في الزمام للمصروعين،(ابن الزيات التادلي، 1997:476) وكان الولي أبو لقمان يرزجان يرقي المصروعين، ومن ذلك أن امرأة أخذت ولدها له ليداويه من الصرع ورغم أنه نصحها بأخذه إلى الأطباء إلا أنها رفضت لأنهم عجزوا عن مداواته، فمسح بيده على الصبي فما أصابه صرع بعدها(ابن الزيات التادلي، 1997: 233)، ونجد من خلال بعض النصوص أن الصرع ارتبط لدى الولي الصالح شفاء وتسليطا، فكان يدعو به على من يتعرض له بالأذى، من ذلك ما وقع لأبو عمران موسى الصاريوي أين تعرّض له أحد من أهل الدعارة مهددا له بالأذى إن لم يعطه مالا، فدعى عليه وبقي أياما يصرع ويخنق نفسه، ولما زال عنه ذلك فرّ وحدّث الناس بما وقع له من الولي (ابن الزيات التادلي، 1997: 289).

-خاتمة:

كانت تجربة الأطباء مع تشخيص الصرع بعيدة عن النتائج المرجوة بسبب عدم تمكنهم من تشريح الدماغ، وبذلك نجد أن مختلف التشخيصات كانت بعيدة عن الصواب حسب ما أثبته الطب الحديث من أن سبب الصرع يمكن في خلل بالنشاط الكهربائي للدماغ؛ لكن على كل حاولوا تقديم بعض الأدوية المفردة ذات المصدر النباتي أو الحيواني، وفي بعض الأحيان بعض التركيبات التي تسمى علميا بالأدوية المركبة، إلا أن استمرار تواجد الحالات الصرعية وعدم نجاعة الأدوية شكّك في قدرتهم على شفاء المصروع، ما حوّل أنظار المجتمع إلى فئة المتصوفة أو كما تسميهم كتب المناقب بالأولياء الصالحين، صحيح أن المجتمع كانت له نظرة روحانية للصرع على أنه مس من الجن، لكن عدم نجاعة الأدوية سبب دعم كثيرا لجوء الناس للماورائيات كعجز عن التوصل لدواء يشفي الصرع أو يقلل من نوباته، واستمرت هذه النظرة حتى في الزمن الراهن أين نجد العديد من مرضى الصرع يلجؤون إلى الرقية الشرعية بالرغم من توفر الأدوية التي ساهمت بشكل فعال في تقليل نوبات الصرعية؛ ومن خلال هذا البحث يتبين لنا أن تاريخ الأمراض ميدان خصب يحتاج الخوض فيه حتى نتجنب التكرار والاجترار؛ خصوصا إذا ركّز الباحث على تاريخ تطور أعراض الأمراض والتغيرات التي جرت عليها تبعا للبيئة الغذائية والمناخية وحتى الجغرافية.

التعليقات:

-**التعليق** 01: مفردها أيارج وهي أدوية مركبة مسهلة ومعناه الدواء الإلهي وأشهره أيارج روفس، فكل مسهّل مكون من أدوية مركبة يسمى أيارجويفيد في استخراج الأخلاط من بطن الإنسان. (ابن سينا،1999:433.)

-**التعليق 02**: مفردها غرغرة وهي أدوية مركبة سائلة، يتناولها المريض بمضمضتها في حلقه.(عبد الكريم شحادة :58)

-التعليق 03:إلى غاية النصف الثاني من القرن التاسع عشر، كان تشخيص مرض الصرع يراوح مكانه، لماذا؟ لأنه منذ العصور القديمة من أيام أبقراط مرورا بأطباء العصر الوسيط إلى غاية مشارف القرن التاسع عشر، لم يكن الأطباء يعرفون عن شيء مهم في الدماغ، والمسمى بكهرباء الدماغ، والتي اكتشفها البريطاني ريتشارد كاتون، وبذلك أحدث نقلة نوعية في تشخيصه، فطبيب الأمراض العصبية في الزمن الراهن لا يشخص مريضا بالصرع إلى إذا أجرى له تخطيطا لكهربية الدماغ EEG عن طريق جهاز خاص. ماثيو والكر، سيمون شورقون، داء الصرع، ترجمة هنادي مزبودي، كتاب العربية، مكتبة الملك فهد، 2013، ص25.

-قائمة المصادروالمراجع:

-ابن الجزار القيرواني، سياسة الصبيان وتدبيرهم، تحقيق وتقديم محمد الحبيب الهيلة، الدار التونسية للنشر، تونس، 1968.

-ابن الجزار القيرواني، طب المشائخ وحفظ صحتهم، تحقيق عمر فاروق -العسلي، الراضي الجازي، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون، تونس، 2009.

-ابن الجزار القيرواني، كتاب في المعدة وأمراضها ومداواتها، تحقيق سلمان قطابة، دار الرشيد للنشر، العراق، 1980.

-ابن الزيات التادلي، 1997، التشوف إلى رجال التصوف، تحقيق أحمد التوفيق، ط3، الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة.

-ابن القيم الجوزية، الطب النبوي، مكتبة دار السلام، الرياض، 2012.

-ابن رشد، الكليات في الطب، تحقيق عمار الطالبي، سعيد شيبان، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، 1989.

-ابن زهر، التيسير في المداواة والتدبير، ج1، تحقيق يحيى مراد، كتب عربية، د.س.

-ابن سينا، القانون في الطب، ج1، وضع حواشيه محمد أمين الضناوي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1999.

- جعفر يايوش، غازي الشمري، 2016، الطبيب ابن زهر الأندلسي رائد التجريب، بيروت، دار الكتب العلمية.

- راغب السرجاني، 2009، قصة العلوم الطبية في الحضارة الإسلامية، القاهرة، مؤسسة إقرأ للنشر والتوزيع والترجمة.
- الزهراوي، 2000، المقالة الثلاثون من كتاب التصريف لمن عجز عن التأليف، تحقيق عبد العزيز ناصر الناصر، علي بن سليمان الشويجري، ط3، الرياض، مكتبة الملك فهد.
-الزهراوي، التصريف لمن عجز عن التأليف، المقالة الثانية، المملكة العربية السعودية، مكتبة جامعة الملك سعود، قسم المخطوطات.
-عبد الكريم شحادة، 2005، صفحات من تاريخ التراث الطبي العربي الإسلامي، بيروت، أكاديميا أنترناشيونال للنشر والطباعة.
- ماثيو والكر، سيمون شورقون، داء الصرع، ترجمة هنادي مزبودي، كتاب العربية، مكتبة الملك فهد، 2013.
- مجموعة مؤلفين، د.س، الموجز في تاريخ الطب والصيدلة عند العرب، ج1، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم.
- محمد بن صعد الأنصاري التلمساني، 2009، روضة النسرين في التعريف بالأشياخ الأربعة المتأخرين، تحقيق يحي بوعزيز، الجزائر، عالم المعرفة للنشر والتوزيع.
- محمد بن عبد الكريم الفاسي، 2002، المستفاد في مناقب العباد بمدينة فاس وما يليها من البلاد، ج2، تحقيق محمد الشريف، تطوان، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية.